حجم السكـان والزيـادة واضحـة. كما ان الصلة بين زيادة السكان والبعدين الباقيين قوية، ولكنها تمر عبر العمليات السكانية الاساسية: الانجاب، الوفاة، الهجرة الداخلية والخارجية. وعند هذه النقطة يمكن التوصّل الى تحديد أدق للنسق الفرعي للسكان، ويكتسب فهماً أوثق لكيفية أدائه.

باختصار، ان النسق الفرعي للسكان محكم الترابط، داخلياً؛ بمعنى ان مكوّناته تتفاعل مع بعضها بشدة. وعليه، فانه من الخطأ ان نعالج بعداً واحداً من أبعاد هذا النسق، بمعزل عن باقي مكوّناته. ويمكن الزعم، هنا، ان ما ثار الجدل حوله ساخناً، بأسلوب علمي أحياناً، ومحملاً بشحنة ايديولوجية في معظم الأحيان، هو العلاقة بين النمو الاقتصادي الذي شهدته فلسطين، في أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، وبين الهجرة الخارجية (إنْ كانت عربية أم يهودية).

فعلى الرغم من ان الربط شبه الميكانيكي بينهما تمّ لدى البعض نتيجة تصرّف لاشعوري، او تعبيراً عن سياسات مدروسة، فان الحكمة تقتضي الكشف عن بعض جوانب الخصائص السكانية المرتبطة، بصورة أو بأخرى، بالواقع الاقتصادي بتشعباته المختلفة، واستخلاص النتائج الواقعية في ضوئها.

ولكن، بمعزل عن هذا الامر، فان الواقع حيّ في هذا الكتاب. فأيّاً تكن رغبة مكارثي في ابراز حجم السكان، والزيادة في عددهم، يبقى الكاتب، اجمالاً، ميّالاً الى احترام الوقائع، والى استخلاص النتائج منها. فالكتاب، في هذا المستوى، كما في غيره، ليس دعاوياً على الاطلاق.

لذا، وبالرغم من طبيعته التاريخية، يبقى الكتاب هامّاً، لأن في طيّاته، أيضاً، بعض من التفسير لما يحصل، اليوم، أمام ناظرينا. والحاجة الى فهم أوضح لهذا التفسير أمسّ من أي وقت مضى.

د. نبيل حيدري